العربية
بين الإهمال والاستعمال

سلسلة "دراسات معجمية ولسانية"

تندرج هذه السلسلة في إطار رؤية المركز لاستئناف أسئلة النهضة العربية الحديثة، والتي مثّل الاهتمام باللغة العربية والنهوض الإنتاج البحثي فيها. وانطلقت رؤية المركز منذ بداية مشروعه النهضوي من أن الأمم تحقق نهضتها بلغتها، ومن دون انعزال عن معرفة اللغات الأجنبية والتمكن منها، الأمر الذي يعمل معهد الدوحة للدراسات العليا الذي أسسه المركز على تحقيقه حيث يجري الاعتناء الخاص باللغة الإنكليزية والتمكن منها، إلى جانب التدريس باللغة العربية.

ولهذا سار مشروع إحداث المركز لسلسلة "ترجمان" بشكل متزامن مع تأسيسه في 25 أيار/مايو 2013 لـ"معجم الدوحة التاريخي للغة العربية" لسد الثغرة في هذا المجال، ولإدراجه في منظومة المعاجم التاريخية للغات العديد من الأمم التي سبقت العرب في إنجازاتها لمعاجمها التاريخية واستغرق عمل علمائها عشرات السنوات في إنجازه. ولقد أنجز المعجم مرحلته الأولى بإطلاق بوابته الإلكترونية في 10 كانون الأول/ديسمبر 2018، ومشروعه مستمر لإنجاز المعجم التاريخي منذ أول نص عربي وصل إلينا وحتى زمننا الراهن.

وتصدُر "سلسلة دراسات لسانية ومعجمية" لتختصّ بنشر كتب عربية متميزة بقيمتها العلمية المضافة في مجال الدراسات اللسانيات والمعجمية، تنظيرًا وتطبيقًا وتحقيقًا، وبنشر معاجم لغوية عربية مختصة تشكِّل إضافة جديدة إلى ما هو قائم من رصيدنا المعجمي الغني. وتطمح إلى تعزيز التفكير والتأليف باللغة العربية في مجالات العلوم الاجتماعية والإنسانية بما يرسخ النهضة العربية الحديثة، وحضورها في العالم.

العربية
بين الإهمال والاستعمال

عبد العلي الودغيري

المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

الفهرسة في أثناء النشر – إعداد المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات

الودغيري، عبد العلي

العربية بين الإهمال والاستعمال/ عبد العلي الودغيري.

192 صفحة؛ 21 سم.

يشتمل على ببليوغرافية (صفحات 173–181) وفهرس عام.

ISBN 978-614-445-739-9

1. اللغة العربية. 2. الترجمة العربية. 3. اللغة العربية – ترجمة. أ. العنوان.

492.7

العنوان بالإنكليزية

Arabic Between Neglect and Use

by Abdelali El Oudghiri

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن
اتجاهات يتبناها المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات

الناشر

المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

شارع الطرفة – منطقة 70
وادي البنات – ص. ب: 10277 – الظعاين، قطر
هاتف: 00974 40356888

جادة الجنرال فؤاد شهاب شارع سليم تقلا بناية الصيفي 174
ص. ب: 4965 11 رياض الصلح بيروت 2180 1107 لبنان
هاتف: 8 991837 1 00961 فاكس: 00961 1991839

البريد الإلكتروني: beirutoffice@dohainstitute.org
الموقع الإلكتروني: www.dohainstitute.org

© حقوق الطبع والنشر محفوظة للمركز

الطبعة الأولى

بيروت، نيسان/ أبريل 2026

المحتويات

تقديم 7

الفصل الأول: اللغة والانتماء الحضاري 11

الفصل الثاني: عن العربية وآفاقها (رؤى وتصورات) 25

أسئلة البحث 25

رُؤى وتصوّرات 26

بين الحماية والتنمية والتطوير 26

عرض التصورات ومناقشتها 28

خلاصة المناقشة 57

الفصل الثالث: الترجمة وتنمية اللغة والعلوم 61

أولًا: الترجمة: أثرُها وأهميتُها 61

الطريق لاستيراد المعرفة 62

الترجمة وأهميتها 64

طريق ثالث 67

ثانيًا: توحيد لغة العلوم وتكامل المعارف 68
الاختيارات الخاطئة ودواعيها 72
مزاعم كاذبة 73
نسبة الألفاظ العلمية 82
الاختيار السليم 86
ملحق بهذا الفصل 91

الفصل الرابع: الترجمة والنهضة قديمًا وحديثًا 97
أولًا: الترجمة والنهضة العربية الإسلامية الأولى 97
ثلاث حركات غيرت ملامح العربية 101
ثانيًا: الترجمة ونهضة أوروبا 102
الشغف بالعربية 110
المصطلحات العلمية ذات الأصل العربي 115
ثالثًا: الترجمة والنهضة العربية الحديثة 125

الفصل الخامس: الترجمة والمصطلح العلمي الحديث 141
خاتمة 169
المراجع 173
فهرس عام 183

تقديم

اللغة تعيش بالاستعمال وتموت بالإهمال. هذه هي العبارة التي تلخص الرد الطبيعي والواقعي على الدعوى الزائفة التي لا يملّ أعداء اللغة العربية من تكرارها بالقول إنها اليوم غير مهيَّأة لاستعمالها في تدريس العلوم الأساسية والتطبيقية وفروعها، وتحتاج إلى مراحل من التطوير والتأهيل لكي تستطيع القيام بهذه المهمة. وغايتهم الإبقاء على تهميشها وإبعادها عن مسايرة كل المعارف العملية والنظرية التي تتوقف عليها الحياة العصرية واستيعابها. وقد ناقشنا هذه الدعوى من جوانبها المختلفة، ورددنا عليها بحجج مختلفة في الفصلين الثاني والثالث من هذا الكتاب. ومهّدنا لذلك بفصل أول بيّنا فيه أن اللغة في ظل حضارة من الحضارات الإنسانية، لا تكون مجرد أداة للتواصل والتخاطب بين الأفراد المنتسِبين إليها، ولا تتوقف عند هذا الحد، وإنما تتعدّاه لتصبح فاعلةً في صنعها وبنائها معبّرةً عن وجودها والانتماء إليها، ناطقة باسمها، مواكِبة لمراحل تطورها، مختزِلة لمضامينها وخصائصها ومميّزاتها، مكثِّفةً لكل ما فيها من تفاصيل وجزئيات مهما اتسع مجالُها ونطاقُها.

وفي الفصل الثاني قدّمنا مجموعة تصوّرات عن آفاق العربية، ورؤيتنا لما ينبغي أن يكون عليه الطريق لتطويرها وتنميتها وخدمتها والمحافظة عليها. وقلنا إن تطوير أي لغة وتنميتها، لا يكونان ولا يتمّان إلا بإعمالها وإقحامها في كل فروع العلم والمعرفة والتقنية، أما إهمالها وتهميشها

ثم الادعاء بأنها قاصرة أو عاجزة، فهو منطق معكوس وحجة باطلة. لأن كل تجارب الأمم الغابرة والحاضرة مع لغاتها، أثبتت أن الوصفة العلمية الصحيحة المجرَّبة هي دفع اللغة لتخوض غمار الحياة بتشعُّبها وتعقيداتها، وتكتشف معالمَها وآفاقها بنفسها، وبذلك تكتسب المناعة الذاتية وما تحتاج إليه من قدرة على المقاومة، فتنمو وتتطور في مناخ طبيعي، ويَغتَني معجمُها وتتوسَع مصطلحاتُها وألفاظُها، باتساع المعارف والآفاق التي ترتادها داخل مجالات استعمالها لا خارجَها. هذا هو الطريق السليم، وغير ذلك سَفْسطة وجَعْجعة وتسويف وتنويم وتضليل. وهذا الكلام رغم أننا قلناه وكرّرناه في مناسبات وكتابات سابقة، لكننا لن نملّ من إعادة التذكير به إلى أن يؤتي أُكلَه وتستوعبه الأفهامُ والعقول بحول الله، فهو خلاصة تجاربنا الطويلة في البحث والتفكّر والتأمّل في هذا الموضوع.

وفي الفصل الثالث تناولنا موضوع التعليم وبأي لغة يكون، هل الأنفع والأصلح أن يكون باللغة الوطنية ولغة الأمة الجامعة، أم لا بدَّ من أن يكون بلغة أجنبية مع ما في ذلك من مخاطر على الأفراد والمجتمع؟ وقد وقفنا بكامل الوضوح مع الاختيار الأول وبيّنا منافعه وفوائده، ورفضنا الخيار الثاني وبيّنا أضراره ومفاسده. ومن أجل ذلك توقّفنا طويلًا عند أهمية الترجمة في دعم الاختيار الصحيح وتنمية اللغة الوطنية وتطويرها ونقل المعارف وبناء العقول التي تصنع الحضارة، من دون الوقوع في أسر التبَعية الثقافية واللغوية والانهزام النفسي والاستلاب الفكري.

أما الفصلان الرابع والخامس فقد واصلنا فيهما الحديث عن أهمية الترجمة في نهضة العلوم وازدهار الحضارة العربية والحضارة الغربية على السواء، في القديم والحديث، وقدمنا لمحة مركّزة عن التجارب السابقة في حياة الأمة العربية الإسلامية وغيرها في هذا الموضوع. وعن الجهود المبذولة في وضع المصطلح العلمي في بداية النهضة العربية الحديثة

وما أثمرته تلك الخُطوة الأولى قبل أن تقع في قبضة الكولُنْيالية الأوروبية، وهي طَرِيّة هَشَّة، فتعوق مسيرتها وتوقف حركة تدريس العلوم باللغة العربية التي شهدت انطلاقة راشِدة، دشّنها عهد محمد علي في مصر منذ بداية القرن التاسع عشر الميلادي، وامتد أثرُها ليشمل بلاد الشام ويصل صداها إلى المغرب الأقصى. كانت تلك الحركة الحديثة امتدادًا طبيعيًّا للنهضة العربية الإسلامية القديمة حين كانت كل العلوم والمعارف تُلقَّن وتُدرَس بلغة الأمة، منذ نشأة تلك العلوم في العصرين الأموي والعباسي، ولم تكن نشازًا فيها أو خروجًا عنها. ولو كُتب لتلك الحركة المباركة أن تستمر في نموّها وعطائها وزحفها وانتشارها، دون أن يُوقف قطارَها ذلك العائقُ الاحتلاليّ، الذي حوَّل المسارَ وغيَّر الاتجاه، وفرضَ لغتَه وثقافته، لما كان هنالك من يناقشنا اليوم فيما نطالب به ونلحُّ عليه، وهو استرجاع حقّنا الطبيعي والقانوني والإنساني والحضاري، في استعمال لغتنا لتلقين العلوم جميعها، وتحصيل المعارف في تكاملها. وهل هنالك حقٌّ أقوى وأظهر وأنصع، من حق الإنسان في أن يتكلَّم لغتَه بكامل حريته، وأن يتعلّمها ويعلّمها، ويكتبها ويفكّر بها، وينمّيها ويطوّرها، ويستعملها ويوظِّفها في سائر أغراضه؟

وإذا كان هذا الحق قد أصبح في المجتمعات العصرية ممارسة عادية وطبيعية، وأمرًا مسلَّمًا به ومُجمَعًا عليه، ولم تبق هنالك أمةٌ من الأمم الحرة المستقلة المتطلِّعة إلى تحقيق تنميتها وإقلاعها الاقتصادي والاجتماعي، وإرضاء طموح شعوبها ومجتمعاتها، إلا وقد جعلت من لغتها أساسَ التعليم في سائر مدارسها وجامعاتها بلا استثناء، فضلاً عن التعامل التلقائي بها في مؤسساتها الاقتصادية والاجتماعية والإدارية، فإنه في دولنا ومجتمعاتنا العربية، أو في عدد منها على الأقل، ما زال الأمر محلَّ شكّ وأخذ وردّ، وتجاذبٍ وتنازع وتلاعب بين أصحاب الأهواء والأيديولوجيات والتيارات، حتى لقد أصبح إعراض هذه الدول

والمجتمعات عن لغتها العالِمة والجامعة، واصطناع غيرها من لغات المتغلِّبين، خاصيةً من أبرز خصائصها التي تميزها وتنفرد بها.

لقد كنتُ أعتقد، وما أزال، أن العائق الكبير أمامنا، هو التخلّص من آثار الفِرْية الخطيرة التي ورثناها من عهود الاحتلال حين غُرس في أذهان الكثيرين أن لغتنا هي سبب تأخّرنا وتخلّفنا، وأن المعركة المصيرية الأولى لدُولنا وشعوبنا العربية اليوم، هي معركةُ استرجاع الوعي بأهمية لسانها الجامِع المجسِّد لشخصيتها ووحدتها، والمعبِّر عن كيانها ووجودها. فتلك هي أمُّ المعارك التي لا يتحقّق النصرُ في إحداها قبل أن يتحقَّق فيها. وهي الشرط الضروري الذي يتوقّف على وجوده انعقادُ ما سواه من الشروط الأخرى للنهضة والتنمية والقيام والإقلاع، عكس مقولة الاحتلال تمامًا.

وكتب في الرباط، 2 جمادى الأولى 1447هـ،
الموافق 24 تشرين الأول/ أكتوبر 2025

الفصل الأول

اللغة والانتماء الحضاري

– 1 –

تُستعمل اللغة عمومًا، من حيث وظائفها، استعمالاتٍ كثيرة، وتُعرَّف بناءً على ذلك تعريفات مختلفة؛ فهي أداةُ تخاطبٍ، وأداةُ تعليم، وأداة تفكير، وأداة إبلاغ وإفصاح وإقناع، وأداة تأثير وهيمنة وسيطرة، وأداةُ حفظٍ وتخزين واستذكار واسترجاع. وهي لغة دين، ولغة هوية، ولغة معرفة، ولغة حضارة وتاريخ، ولغة أدب وعلوم وفنون... إلى غير ذلك من الوظائف وما يتبعها من تقسيمات. ومن التقسيمات التي يمكن استخدامُها لإبراز جانب مهم من وظائفها، تقسيمُها إلى لغة لُزوم واقتضاءٍ، ولغة انتماءٍ وبناء.

وكونها لغةُ لزومٍ واقتضاءٍ معناه: استعمالها حصريًّا لقضاء غرض ظرفيّ وغايةٍ محددّة نفعية في الغالب، تزول الحاجةُ إليها بانتهاء الغاية من استدعائها. كأن يُقبِل شخص على تعلُّم لغة قومٍ بغرض الاقتصار على ما يلزمه أو تَقتضيه مصلحتُه الظرفية المحدودة من هؤلاء القوم، كالتواصل والتعامل والمتاجرة معهم، أو طلب الشغل عندهم، أو الدراسة أو السياحة، أو التجسُّس عليهم وعلى أحوالهم وثقافتهم، ونحو ذلك من الأغراض الكثيرة. فاللغة هنا أداةٌ ظرفية أو قناةٌ يَتوسَّل بها مُستعمِلُها لقضاء الغرض الذي يقصد إليه. وقد اضطر الفرنسيون الذين احتلوا الجزائر في بداية

القرن التاسع عشر، وهم غالبون منتصِرون، إلى تعلم لغة السكان الأهالي وهم مغلوبون، لغاية محددة ومؤقّتة وهي التواصل مع هؤلاء المحكومين والتفاهم معهم وإصدار الأوامر إليهم والنفاذ إلى عقولهم وقلوبهم لاستمالتهم وكسب تعاطفهم، مع أنها لم تكن سوى لهجة عربية محلّية شفوية. ولم يفكروا في تعلم العربية العالِمة المكتوبة، لأن اللهجة الشعبية البسيطة كانت كافية للوفاء بغرضهم ريثما يتمكنون من إحكام السيطرة على البلاد فيُكرهون الأهالي على تعلُّم لغة الغالب، كما حدث بعد ذلك فعلًا. فالفرنسيون لم يكونوا بحاجة إلى لغة عالِمة رفيعة القيمة، وعميقة لها قدرة وكفاءة عاليتان، وخبرة وتجربة طويلة، وتراث واسع، وعلوم وآداب، يستعملونها في بناء حضارة وفكر، وإقامة أمة، وإنما كانوا بحاجة فقط إلى ما يَفي بالغرض الوقتي المحدّد لأجل معلوم خطّطوا له من قبل، مع أنهم في بلادهم حاربوا، منذ قيام ثورتهم نهاية القرن الثامن عشر الميلادي، اللهجات واللغات الإقليمية وقضوا عليها انتصارًا للغة وطنية جامعة.

اللغة هنا مجرد آلة، مجرد قطعة غيار، أو عُملة نقدية يمكنك استبدالُها بقطع نقدية أخرى كلما نزلتَ في بلد جديد من البلدان التي تزورها. مثلها في ذلك مثل علامات الطريق والمرور، وشأنها شأن الإشارات والحركات باليد والعين والرأس والشفاه وغيرها من أعضاء الجسد، التي تستعملها وأنت في بلد أو مكان لا تعرف لغة أهله ولا الطريق الذي يمكن أن تسلكه فيه. وقد أصبح السائح في عصرنا هذا قادرًا على استعمال جهاز صغير يُترجم له كتابةً وصوتًا الكلمات التي يريد أن يقولها لصاحب متجر أو مقهى أو فندق ينزل فيه. حاجة ظرفية آنيةٌ تحلّ مشكلتها بهذه السرعة وبمثل هذه الآلة البسيطة التي أصبحت مألوفة وعادية.

اللغة هنا لا يُتعلَّم منها إلا القدر الذي يُحتاج إليه لأداء الغرض الذي من أجله كان الدافع للتعلّم، ومعجمها وظيفي محدود. ولا يهمّ المتعلّمَ الغوصُ في دقائقها وأسرارها وفهم فلسفتها على النحو الذي يكون عند

صاحبها الأصلي، اللهم إذا كان المراد هو التبحّر في معرفتها لغاية دراسية وبحثية دقيقة، فيتم العكوف على تفكيك بِناها وجملها وتراكيبها وألفاظها وأصواتها، لفهم آلية عملها وكيفية اشتغالها. ولكن حتى في هذه الحالة التي يتوصل فيها الباحث المتعمق إلى تفكيك الآلة اللغوية إلى أصغر وحداتها، ومعرفة أدق التفاصيل عن عناصرها وتكوينها، فإن ذلك لا يعني بالضرورة أنه أصبح قادرًا على امتلاك ناصية هذه اللغة مثلما يمتلكها صاحبها الأصلي المنتمي لحضارتها، وإنما يبقى في حكم الطارئ عليها الذي يستطيع الحكم على جانبها المادّي والميكانيكي، ولكنه لا ينفُذ إلى روحها وجوهرها الداخلي، إلى إيحاءاتها وظلال كلماتها، وما يسكنها ويعيش فيها من مشاعر وأحاسيس وتاريخ وذكريات.

إن الطفل من الجيل الثاني من أسرة مهاجرة، حين يولد وينشأ في بلد المهجر، يستعمل في البيت لغةَ أبويه إن كانا يتكلمانها في حضوره. وبعد مدة قصيرة يصبح متقنًا للغة والديه، وعندما يدخل المدرسة ويخرج للشارع، يتعلم لغة البلاد التي ولد فيها، حتى يصبح بارعًا فيها لا يختلف عن غيره من أبناء ذلك البلد الأصلاء فيه. فبها يتعلم في المدرسة والجامعة، وبها يتكلم مع زملائه وجيرانه ويتعامل مع كل فئات الناس. وحين يصبح متعلمًا يستعمل تلك اللغة، لغة بلد الميلاد، في مهنته التي يزاولها كل يوم ويجتهد بها في تحقيق ذاته وشخصيته في المجال الذي اختاره. فإن كان أستاذًا فبها يحاضر ويدرّس، وإن كان مؤلفًا أو باحثًا، فبها يبحث ويقرأ ويكتب وينشر، ويجادل ويناقش، ويُخاطِب ويُخاطَب. وإن كان مهندسًا أو محاميًا أو طبيبًا أو غير ذلك، فهو بتلك اللغة يصوغ أفكاره ويعبر عنها، وبها يساهم في تنمية البلد الذي يعيش فيه، اقتصاديًّا وصناعيًّا وفكريًّا وثقافيًّا ولغويًّا. كل مجهوده الفكري والذهني وحتى العضلي الذي يبذله، يصب في النهاية في خدمة المجتمع والدولة التي يعيش فيها. فهذه اللغة التي يستعملها في كل شيء أصبحت لغتَه. وهو بواسطتها أو بفضل إتقانها

أصبح عنصرًا فعالًا في مجتمعه ومساهمًا في تنميته وبنائه. إذن هذه اللغة التي يوظفها هذا الشخص على النحو الذي ذكرناه هنا، أصبحت عنده لغة انتماء وبناء.

أما اللغة التي لا يستعملها هذا الشخص من المهاجرين من الجيل الثاني، إلا مع والديه إن جلس إليهما وأحبّ أن يشاركهما في بعض مشاغلهما البيتية الصغيرة، أو في التواصل الخفيف مع أبناء بلده الأصلي إن زاره مع أقربائه لفترة معينة، فهي لغة ذات وظيفة محدودة في معجمها وتراكيبها ومفاهيمها ومجالات استخدامها، وغالبًا ما تكون شفوية غير مكتوبة، ولا سيما أن معرفته بها تتوقّف عند حدود اللهجة الخاصة لوالديه. فهو لا يستخدمها إلا في هذا الغرض البسيط مما يقتضيه المقام من تواصل محدود سطحي مع أهله. أما حين يتزوج هذا الشخص في بلد المهجر، فإن أبناءه من الجيل الثالث سوف ينشأون وهم لا يتكلمون في البيت والشارع وأي مكان آخر إلا لغة البلد الذي ولدوا فيه ونشأوا، فإن التقطوا بعض الكلمات عند زيارة من بقي في البلد الأصلي من عائلة الوالد، فهو في حكم النادر الذي سوف تتلاشى آثارُه مع الوقت. فحتى تلك اللغة الوظيفية الفقيرة التي كان يستخدمها والده من الجيل الثاني قد اندثرت أو تقلصت إلى أدنى مستوياتها.

– 2 –

لكن، في حالة أخرى مغايِرة، لا تقتصر اللغةُ على هذه الوظيفة وعلى هذا القدر من الاستعمال، وإنما تتعدّاهما إلى ما هو أعمق وأدق وأشمل، فتصبح تعبيرًا عن الانتماء الوجودي والهُوِيِّي والحضاري والثقافي لمُستعمِلها باعتباره واحدًا من أصحاب اللغة ومُلّاكها وصُنّاعها ومُبدِعيها، منتمِيًا إليهم ومندمِجًا فيهم. بها يعيشُ ويَحيا ويحِسُّ ويفكّر ويتبادل أدقّ مشاعر الحب أو الكراهية وبقية العواطف الإنسانية.

وعندما تكون اللغة تعبيرًا عن الانتماء لحضارة أمة من الأمم، فإنها تكون بالضرورة أيضًا أداةَ بناء، وأداةَ تعليم – والتعليمُ بناء – وأداةَ تفكير، وتدبير، وابتكار واجتهاد، وعمل، ولا بناء من دون ذلك. ومَن يبني بالفكر والابتكار والتعليم والاجتهاد والعمل، فهو يصنع حضارة. فوجود اللغة شرط ضروري لوجود المجتمعات صانعةِ الحضارات. من دون لغة ليس هناك مدنية ولا حياة اجتماعية حقيقية ولا بناء حضاري. تاريخ الأمم والشعوب وثقافتها وفكرها وإنجازاتها وتجاربُها تدوّنه وتحفظه اللغة. وباللغة تُطوّر فكرَها وحياتها، وبها يستمر عطاؤها ووجودُها، وتستمر مدنيّتُها وإنجازاتها التي تخدم الإنسان. ولابن حزم كلام جيد في هذا المعنى حين يقول في إحدى رسائله: "فإن النشأة والتربية والعيش، وعمارةَ ما لا عيش إلا به، من نبات الأرض والحيوان المسخَّر، لا يكون شيء من ذلك البتةَ، ولا يكون وجودُه أصلًا إلا بلغة يقع بها التخاطبُ والتفاهم. ووجدنا كل من لم يَعلم اللغةَ أبدًا لا يتكلم. وهكذا وجدنا كل من يولد أصمَّ، فإنه لا يكون ضرورةً إلا أبكم لا يتكلم. فصحَّ ضرورةً أنه لا يتكلم أحدٌ أبدًا إلا مَن سمع الكلام وعَلِمه. وكذلك جميع العلوم لا يمكن البتةَ أن يُحسنها أحد أبدًا إلا حتى يعلمها. برهان ذلك المشاهدةُ مدةَ عُمر العالَم إلى يومنا هذا، فإن كل من لا يعلم الكلامَ لا يعلمه. والبلاد التي لا علم فيها (...) لا سبيل إلى أن يوجد فيها شيء من العلوم التي لم يعلموها مذ وُجد العالَمُ إلى يومنا هذا. وكذلك جميع الصناعات من الحرث والحصاد والدرس، وآلات كل ذلك. والذَّرو والطحن وعمل الكتّان والقطن والقنّب والحرير وغزْل ذلك كله، لا سبيل إلى أن يَعرف أحدٌ شيئًا من ذلك، إلا حتى يُوقف عليه فيقبله ويترفّق به (...) وبرهان ذلك أنه من لم يعلمه قط لا يدريه"[1].

(1) أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي، **رسائل ابن حزم الأندلسي**، تحقيق إحسان عباس، ج 3، ط 2 (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1987)، ص 136.

فاللغة هي أساس العُمران في الأرض. والعُمران هو البناء، بناء العقل، وبناء الإنسان، وبناءُ المجتمع والمنافع والمصالح، وبناء الحضارة القائمة على الفكر والتدبّر والفهم والعِلم الذي يُنقَل من جيل إلى آخر ومن أمة إلى أخرى، فيُصقَل ويُنقَد وينقَّح، ولا شيء يكون ويظهر من ذلك من دون لغة، إذ لا مدلول بلا دليل.

وإننا كثيرًا ما نستعمل مثل هذه العبارة فنقول: "لم أجد الألفاظ المناسبة للتعبير عن أفكاري أو عن أحاسيسي"، وهذا معناه أن الإنسان الذي يفكّر ويتدبَّر قد لا يجد فيما يعرفه من ألفاظ اللغة التي يُتقنها ما يصلح لتأدية المعنى الدقيق والمفهوم المعقّد اللذين يجولان في ذهنه أو خاطره، فيضطر إلى ابتكار لفظ جديد أو اصطلاح مناسب يولّده من لغته التي يملك ناصيتَها أو يستعيره من لغة أخرى إن وجده فيها. ومن هنا نجد أن المفكرين المتعمّقين والعلماء المتخصّصين عادةً ما تكون لهم مصطلحاتُهم وألفاظُهم ومعاجمهم الخاصة، فيشاركون بها في تجديد اللغة وإثرائها وتوسيع حقولها الدلالية. وكذلك الشعراءُ وكبار الكتّاب والفنّانون من أصحاب الخيال الواسع والقدرة الجامحة على التحليق باللغة في عوالم ساحرة ومُبهرة، فتراهم يوظّفون الكلمات توظيفًا جديدًا لم يَسمع به القارئُ من قبل، ويولّدون ويشتقون ما لم يألفه علماءُ اللغة والبلاغة والبديع والبيان من قبل، وإن استطابُوه وارتاحوا إليه ولم يأنفوا منه رغم جدَّته وطراوته.

إن كل ما لم يُعبَّر عنه باللغة يظل مبهَمًا ومجهولًا، وكل مجهول معدوم. قد تتكوّن للشخص وهو يفكر في أمر أو يعالج مفهومًا، تصوّراتٌ ضبابية وهلامية وأحاسيس غامضة لا يستطيع تحديد طبيعتها بالضبط قبل أن يصبّها في قالب لفظي يعطيها شكلَها ويحدد ماهيتها وطبيعتها ووزنها وقيمتها ومعناها الدقيق، وقوة تأثيرها أو جاذبيتها أو سحرها أو طاقتَها التعبيرية... وهو في هذه الحالة قد لا يستطيع حتى مجرد تفسيرها

لنفسه فأحرى أن يستطيع نقلها لشخص آخر ليكون لها ما يريده من أثر أو تأثير وفعل وردة فعل. فتظل هكذا مبهمة ومجهولة ومعلقة في الهواء كروح بلا جسد يشخّصها ويمثّلها، إلى أن يجد لها لفظًا أو عبارة تسعها وتفصح عنها. وبالتالي نحن لا نستطيع حتى إطلاق صفة "فكرة" أو "أفكار" على ما يَعتور الإنسان من تلك الحالات المبهمة التي لم يتم تحديد طبيعتها ومعناها بعدُ. وبهذا نحكم بأن لا وجود لفكر من دون لغة، وبالتالي لا وجود لإبداع فكري خارج اللغة. فالفكر لا يصبح كذلك إلا حين يولد. وساعةُ ميلاده هي ساعة تلبّسه بالعبارة أو اللفظ اللذين يظهر فيهما، فنستطيع بذلك أن نفهمه ونميّزه عن غيره. ولا وجود لشيء اسمُه التطور الفكري، الذي هو أساس التطور الحياتي والبشري والمجتمعي والإنساني، إلا داخل اللغة. ولا وجود لارتقاء أو نموٍّ حضاري بعيدًا عن الإبداع الفكري والتطور اللغوي. وبما أن كل حضارة لها محتوى فكري وثقافي، وتراكُم معرفي متميِّز، وتصوّر خاص للوجود ورؤية مختلفة للعالَم، فإن كل حضارة تكون لها لغة متميِّزة ومتطابقة مع ذلك المحتوى أو الرؤية والتصور ومعبِّرة عن تلك الخصوصية، وبعبارة أخرى: كلُّ لغة لها محتوى حضاري خاص بها، تنشأ مع نشأته الأولى وتتدرَّج معه في المدارج التي سلكها في تكوينه، تنمو بنموّه، وتتطور بتطوره. اللغة تعيش كل أطوار الحضارة التي تنتمي إليها؛ تعيش معها لحظةً بلحظة وتلازمها خطوةً خطوة، محتضِنةً فكرَها وثقافتها وفنونها وآدابها وعلومها وتاريخها ومعالمها، شاهدةً على تفاصيل حياتها المادية والمعنوية، ناطقةً بلسانها، معبِّرةً عن رؤيتها وفلسفتها ومنظورها للعالم والكون، حافظةً لذكرياتها، مُستَأمَنةً على أسرارها.

وباختصار، فإن لغة أمةٍ، هي خلاصة ما يمكن أن تعرفه عن حضارتها وتاريخها وثقافتها ونفسيتها وأفكارها وأعرافها وتقاليدها وديانتها وعلومها وآدابها وصناعاتها ومِهَنها وصنائعها ومَهاراتها واختراعاتها،

وسِلمها وحربها، وكل صغيرة وكبيرة في حياتها الطويلة عبر الأزمنة والأمكِنة، منذ نشأتها وتكوّنها ووجودها وفي مختلف مراحل تطورها وتجاربها. كل ذلك يُسبَك ويُصبّ، بأصغر تفاصيله وأدقّ دقائقه وبأمانة تامة في وحدات معجمها، ويُختزَل ويُكثَّف في أقراص صغيرة هي ألفاظُها وكلماتها ورموزها اللغوية. ومن أحسن ما قرأت في هذا المعنى تعريفُ عبد الله العلايلي للغة حين تصبح غاية لا وسيلة فحسب، بأنها "مجموعة من الأفكار والتقاليد والعواطف والأحاسيس والنّزوات وشتى المشاعر والاعتبارات، تَنتظِمها الألفاظُ انتظامًا"[2]. فهي جزء لا يتجزأ منها.

وليس من باب الترف الفكري الزائد عن الحد، ولا من باب الغلو والإسراف في القول، أن وجدنا بعض علمائنا من القدامى والمحدثين، من ذهب إلى تلمّس خصائص العربية وما يميزها عن أخرى، إلى حدّ البحث في خصائص حروفها المكوّنة لألفاظها، وهو ما يذكّر بالأمثلة العديدة التي قدمها ابن جنّي في باب "إمساس الألفاظ أشباه المعاني"، وباب "تصاقُب الألفاظ لتصاقُب المعاني"، من كتابه **الخصائص**، ومن سار على طريقه ومذهبه من المعاصرين الذين اشتغلوا بموضوع نشأة اللغة وتطورها، ولم يكونوا على وفاق تام مع نظرية دي سوسير فيما قاله عن العلاقة الاعتباطية بين الدال والمدلول. فهذه العلاقة التي قال بها هذا العالم السويسري، تبدو ظاهرة في جزء من اللغة، لكنها لا تكون كذلك في جميعها، ولا سيما إذا درسناها في نشأتها وتتبعناها في كل أطوار حياتها. ففي النظريات التي تتحدث عن خصائص الحروف والأصوات ودلالاتها الأحادية التي تطوّرت، وتلك التي تذهب إلى القول بالأصل الثنائي للعربية الذي تطور إلى أصول ثلاثية استقرّت عليها في مرحلة نضجها، وتلك التي ذهبت إلى حد البحث عن المعنى المشترك الجامع

(2) عبد الله العلايلي، **مقدمة لدرس لغة العرب وكيف نضع المعجم الجديد** (القاهرة: المطبعة العصرية، [د. ت.])، ص 15.

لكل فروع الجذر المعجمي الثلاثي وتقلّباته على أوجهه الستة، لا تنطلق من فراغ، وإنما من إدراكها لما تتميّز به هذه اللغة بما لا يُشابه غيرها من اللغات. وما تعدّد اللغات إلا نتيجة لتعدد الثقافات والعقليات والتصوّرات والحضارات والمجتمعات. ولذلك لم يكن همبولت مخطئًا حين قال في عبارته المشهورة: إن اللغات تعبير عن عقلية الشعوب. وهذا الأمر نجد انعكاسه أيضًا في اختلاف الأصوات والأبجديات والمقاطع الصوتية من لغة إلى أخرى. ولا يقف الأمر عند الاختلاف الصوتي، ولكنه يتجاوزه إلى اختلاف الدلالات. فليس مفهوم القمر والشمس والسماء والنجم والماء والبحر والشجر... ونحوها، واحدًا محدَّدًا في كل اللغات، وإلا لما وجدنا بعضها مذكَّرًا في لغتنا ومؤنثًا في لغة غيرنا. والأمثلة كثيرة.

– 3 –

هل الفكر يكون قبل اللغة أم بعدها؟ هل نفكر قبل اللغة ثم نعبر عن أفكارنا باللغة، أم نستعمل اللغة فيما نفكر فيه؟ لا أتردّد في القول: نحن نفكر باللغة؛ باللغة تتخلَّق أفكارُنا كما تتخلّق الأجنّة في رحِم الأم، وبواسطتها نصوغ الأفكار التي نريد التعبير بها وإيصالَها للآخرين للتفاعل معها. ونحن نستغل الطاقة التوليدية للغة لاستخراج كل ما نحتاج إليه من صيغ لفظية لتسمية ما نفكّر فيه، وتكون اللغة ضرورية لمصاحبة عملية ابتكار الأفكار وتشقيق بعضها من بعض، وضرورية لنصوغ بها الفروق الدلالية التي يختزنها عقلنا ويستحضرها وقت الحاجة إليها. فاللغة ليست مجرد وعاء للفكر، أو كِيس يوضع فيه، بل هي جزء من النسيج الفكري ذاته توجد معه لحظة تكوّنه وميلاده. ففي اللحظة التي يولد في ذهننا فرق بين ذهَب وتمَذهَب ومَذهبية، وبين بعث وانبعَث، وبين الصوف والتصوّف – مثلًا – يُولد اللفظ الذي يعبر عن كل مفهوم على حدة، فاللفظ بمثابة الجسد الذي تسكنه روح، لا يُتصوّر ولا يُتخيَّل ولا يتشكّل ولا يُحسّ إلا به.

وصانع المفهوم أو المحتوى الفكري أشبه ما يكون بصانع آلة من الآلات؛ يفكّر مليًّا في الحاجة التي يتوقّف عليها وجودُ آلته، والكيفية التي تكون عليها، والشكل الذي تتخذه، والمادة والأجزاء التي تدخل في صنعها وتركيبها. والتفكير في كل هذه الأمور والجزئيات يتم بواسطة اللغة وداخلها لا خارجها، فاللغة هي التي تقرّب صورة كل فكرة إلى الذهن. وكل شيء يمكن للعقل إدراكُه له صورة ذهنية تطابق الصورة الموجودة في العالَم الخارجي أو تشابهه أو تقاربه في شكله أو طبيعته أو شيء من خصائصه، وإلا لما أمكن تصورُه وإدراكُه. والمخترِع للشيء يتخيّله في الذهن أولًا، أي يبحث له عن صورة تقرّبه إلى مداركنا وحواسنا، فكأنه يرسمه في ذهنه من أشياء وأجزاء وخطوط وأبعاد قابلة للفهم والإدراك والتصور مهما كان الشكل النهائي للصورة المكوّنة من تلك الأجزاء جديدًا ومبتكَرًا لم يسبق أن رأيناه من قبل.

– 4 –

ثم إن اللغة – كما هو معلوم – أساس في تكوين مجتمع المعرفة الضرورية للتنمية الشاملة. والمقصود بها اللغة التي تتوفر على العناصر الفكرية والثقافية والحضارية والتاريخية التي يمكن توظيفها في توحيد مكوّنات المجتمع، من جهة، والقادرة من جهة أخرى، على صياغة الأهداف والطموحات المشتركة لشعب أو مجموعة شعوب، أو أمة بمفهومها الحضاري الشامل. فإذا كانت العربية تمتلك هذه القدرة بناء على تجارب الماضي في مراحله المتعددة، وخاصة في مرحلة الازدهار الحضاري الإسلامي، فما الذي يمنعها من أن تكون وسيلة لإعادة بناء هذه الحضارة المشتركة بمجتمعات متماسكة دينيًّا وجغرافيًّا وتاريخيًّا وحضاريًّا، وبأدوات فكرية ومعرفية وثقافية متجانسة ومتلائمة غير متنافرة ولا متصادِمة؟ فاللغة لها أهمية كبيرة في التقريب بين الآراء

والأفكار وتقليص الفوارق الذهنية وتقوية عناصر التفاهم. العربية هي اللغة الوحيدة من بين عدد من اللغات المحلّية في العالم العربي والإسلامي أيضًا، التي تتوفر على أكبر تجربة وأعمقِها في كل المجالات ولا سيما مجالات المعارف والعلوم والآداب. مع نضج تام ومرونة مدهشة وقدرة خلّاقة على توليد ملايين الكلمات بطريقة سهلة وبسيطة، وبطاقة نووية تكفي لسد كل احتياجات الأمة من الألفاظ والاصطلاحات لمواجهة المفاهيم والمعلومات المتدفّقة. أما اللغات المحلّية الأخرى التي تُعرف بـ"لغات الشعوب الإسلامية"، فهي ليست قاصرة بالأصالة، ولكنها تحتاج إلى وقت طويل وتجربة كبيرة لتنميتها وتأهيلها حتى تمتلك القدرة الهائلة التي تمتلكها العربية. لذلك أقول من منطلق التفكير في العالم العربي والإسلامي باعتباره أمة واحدة، لا من منطلقٍ انعزالي قُطري ضيّق الآفاق والحدود: كم تحتاج لغة من لغاتنا المحلّية في أقطارنا المختلفة – وكل منها لغة وطنية أو محلّية معترف بها ولا أحد ينتقص حقَّها أو ينكر خصوصيتها – من الوقت والجهد والطموح لكي تصبح لغةً جامعة مشتركة لهذه الأمة بكاملها ويتأتى لها القيام بالوظائف التي قامت بها العربية من قبل، ومن أبرزها نَسْج خيوط التلاحم والانسجام والتماسك بين أعضاء كيانها الواسع الذي لا بدَّ من تربية الأجيال على التفكير في مصلحته والحرص على بقاء كل ما يعزّز وحدته باستمرار؟ إنها قد تحتاج، ربما، إلى دين جديد تعتنقه وتنشره وتبني حضارتها وثقافتها وعلومها وآدابها عليه قرونًا طويلة، من أجل أن تصل في النهاية إلى وضع مكافئ ومساوٍ لوضع العربية وتجربتها وخبرتها الطويلة. ولماذا تنخرط أمتنا العربية الإسلامية في بذل مثل هذا الجهد المُضني الذي قد يكون مستحيلًا، لتأهيل لغة أخرى جديدة وجعلها جامعة ومشتركة وقادرة ومؤهّلة وعابرة للهويات المحلية الصغيرة، بينما هناك لغة موجودة ومتوفرة على الخاصيّات والمؤهلات والمتطلَّبات المحتاج إليها؟ لا أحد

ممن يتصف بالسلامة العقلية يمكن أن يشغل نفسه في هذا العصر بإعادة اختراع عجلة قد تمّ اختراعُها واستعمالُها وتجريبُها من قبل بشكل ناجح وبارع. ولا أحد سيجري وراء هذا السراب المحال، إلا أن يكون هنالك من لا يشغله ما يشغلنا نحن، من الإبقاء على مَعلَم كبير من معالم الوحدة التي تجمع أطراف العالم العربي والإسلامي، وتنميته وتطويره وتقوية دوره، فينطوي على نفسه ويخلد إلى شأنه المحلّي الصغير، منشغلًا بنزاعاته الإقليمية وصراعاته الطائفية أو العِرقية، متمسكًا بحدود رقعة من تلك الرِّقاع والخرائط التي رسمها سايكس وبيكو بالقلم والمسطرة، لتمزيق جسد أمة عظيمة، وتوزيع أشلائها على ذئاب الوقت حتى يسهل الانقضاض عليها ويبقى أبناؤها الطامحون إلى استعادة شيء من تاريخها وأمجادها، سجناءَ تلك الحدود والخرائط، لا يختلف حالهم عن حال المحكوم عليه بالبقاء في قعر زجاجة، لا يجد القدرة على كسر جدرانها، ولا يعرف السبيل للخروج من عنقها.

– 5 –

وإذا عرفنا أن العربية منذ أن نزل الوحي بها، واتخذها المسلمون لغةً رسميةً لدولتهم وتعليمهم وتسيير إدارتهم ونشر دينهم، لم تعد لغةً للعرب وحدهم، وإنما انتقلت من هذه الصفة لتصبح اللغة الجامعة والمشترَكة للأمة الإسلامية بكافة عناصرها ومكوّناتها العِرقية والعقائدية والمذهبية، بكل شعوبها، وبمختلف لغات هذه الشعوب وثقافاتها المحلّية الخاصة. وهي بهذه الصفة أجدر بأن تسمى لغةَ الهوية الجماعية الموحَّدة، هوية الأمة الإسلامية وحضارتها، من أن تسمى لغةَ العرب. وبهذه الصفة أقبل المسلمون، في كل قطر من أقطار الأرض على تعلُّمها وتعليمها ونشرها واستعمالها في كل مجالات حياتهم ولا سيما المجالات الثقافية والعلمية والدينية والتشريع والإدارة ونحوها. وبهذه اللغة دُوِّنت كلُّ علومهم

ومعارفهم وآدابهم، فأصبحت مع القرون تختزن ذاكرةَ هذه الأمة وتحفظها للأجيال ليتواصلَ جديدُها بقديمها ويرتبط آخرُها بأولها.

ولما صارت العربية، أو "لغةُ الأمة"، على هذا النحو، أكثرَ من أربعة عشر قرنًا، فقد أصبحت تمثِّل الحجر الأساسَ من مكونات الهوية العربية الإسلامية، ومن مكوِّنات كل بلد أو شعب من البلدان والشعوب العربية الإسلامية، ورابطًا قويًّا من الروابط المتينة التي تجمع بعضَها ببعض. فإذا كان انتماؤُنا للأمة العربية الإسلامية انتماءً حقيقيًّا تاريخيًّا وحضاريًّا ودينيًّا وثقافيًّا ولغويًّا، فإن العربية لم تعد عند العربي والمسلم مجرد أداة للتواصل وقنطرة للعبور فحسب، بل أصبحت رمزًا من رموز انتمائه الحضاري، ودليلًا من دلائل هذا الانتماء، وعلامة من علاماته، ومُشخِّصًا من مُشَخِّصاته. وهي فوق هذا وذاك أداة من أدوات البناء الثقافي والعلمي والمعرفي والمجتمعي والحضاري أيضًا.

ومن هنا نفهم لماذا كان الاحتلال الأوروبي يجعل من محاربة العربية في الأقطار العربية والإسلامية التي سيطر عليها، معركةً وجودية لا بدَّ له من الانتصار فيها. فلقد كان يرى في استمرار هذا الرابط اللغوي، الذي يعبِّر عن الارتباط الحضاري والهُويِّي العميق بين كل شعوب الأمة العربية الإسلامية وأفرادها، ما يهدِّد وجودَه وتفوَّقَه على المدى البعيد. لأن هذه الشعوب متى اشتدَّ تمسُّكُها بدينها ولغتها الجامعة المشترَكة، زاد تلاحُمُها وترابُطها وتعاونُها، وتحوَّل ذلك إلى قوة قاهرة قادرة على دَحْرِ كل دخيلٍ مهما بلغت حيلتُه ووسائلُ سيطرته وتغلُّبه. ومن هنا بذل المحتلّون كلَّ ما استطاعوا لمحاربة العربية ولا سيما العربية العالِمة (المعيارية)، ومحاربة الحرف الذي تُكتب به أيضًا والعمل على تحويله إلى حرف لاتيني كما فعلوا مع التركية والألبانية وأغلبية لغات الشعوب الإسلامية في آسيا وإفريقيا وشرق أوروبا.

– 6 –

كيف نحافظ على لغتنا لنحافظ على وجودنا وشخصيتنا وهويتنا، واستمرار حضارتنا وإعادة بنائها وتسليحها بالعلم والمعرفة؟ وكيف نستفيد من تجارب الآخرين، ونأخذ من نتاج لغاتهم وعطاء ابتكارهم ونبوغهم دون التفريط في لغتنا الجامعة المشتركة، ونستنبت النافع منه ونوطِّنه في تربتنا ومناخنا، ونبني عليه ونضيف إليه؟ وكيف نحرص على جعل لغتنا أداة للتعليم والتثقيف وأساسًا لا بديل عنه للتنمية الشاملة التنمية، مع الحرص على تطويرها وتنميتها وإقحامها في كل مجالات المعرفة الإنسانية بلا شرط ولا قيد؟

ذلك هو موضوع الفصول القادمة.